٢٠١١/١١/١٤-٥٥٥١-٢

السفير جريدة الشعب ©2011
www.assafir.com

محلّيات
تاريخ العدد ٢٠١١/١١/١٤ العدد ١٢٠٣٦

في «اللبنانية ـ الأميركية»: وحده السماح يضمد الجراح
جلادون وضحايا يروون تجاربهم خلال الحرب

مادونا سمعان

عانقت الانكليزية جو بيري الجندي السابق في الجيش الإيرلندي بات ماغي، وزرعت قبلة على خدّه الأيسر. هي الضحية وهو قاتل والدها وعناقهما حصد تصفيق ودهشة جمهور لبناني في غالبيته، حضر إلى حرم «الجامعة اللبنانية - الأميركية» في جبيل للمشاركة في المؤتمر الدولي المعنون «تضميد جراح التاريخ: معالجة جذور العنف في لبنان».

اختصرت تجربة «الجلاد والضحية» التي رواها كل من بيري وماغي رسالة المؤتمر، الذي دعا إليه كل من «مركز الدراسات اللبنانية» في كلية «سانت أنتوني» في جامعة «أوكسفورد»، ومؤسسة «غراند هيرمس للسلام»، بالاشتراك مع «مركز الدبلوماسية وتحويل الصراع» في «الجامعة اللبنانية - الأميركية».

في المؤتمر نفسه، تقابل لبنانيون خاضوا المعارك على جبهات متناحرة، وقف كل بدوره أمام الحضور تاليا فعل الندامة.

بينهم، بقيت ضحية واحدة تصارع المرارة. مرارة أيام عاشتها بعد مقتل شقيقها الأصغر. لم تقو هالة أبو علي على الوقوف أمام الحضور، بقيت جالسة تتحدث بصوت متقطع وكأنه لم يمرّ على تلك التجربة إلا أيام قليلة.

قالت: «كنت أرى الحياة على صورة قريتي فريديس، بجمال طبيعتها وبرائحة زهورها». هي ترعرت في كنف عائلة تبغض السلاح والأحزاب والاقتتال، على رأسها والد يثق بأن نار الحرب لن تحرق إلا من يقترب منها، وهو لم يقترب منها. لكن الحرب استباحت عائلته، وقد صدمته فداحة المصاب، فمات بعد تسعة أيام على رحيل ابنه.

هكذا استعادت هالة لحظات التحول في حياتها، «حين دخل والدي وقال «راح الصبي». قُتل شقيقها بصاروخ «مسيحي»، و«عمّمت الصورة على كل المسيحيين، ورأيت فيهم جميعا «قوّات عون» و «قوّات جعجع».

قالت الضحية أيضاً «هذا بلد أخاف منه، أخاف من تاريخه ومن ذاكرته». قبل أن تنتقل إلى نقطة تحول أخرى في حياتها، يوم شاهدت عبر التلفزيون رجلا «مسيحيا» يروي خسارة قريب له بسبب الحرب «فاكتشفت أن قصتي هي قصة كل لبناني، قيل له ذات يوم انه إن أردت الحياة فعليك أن تلغي «الآخر».

بعد تلك الحادثة، جمعت هالة أبناء قريتها من مسيحيين ودروز وبدأت بالعمل على أطفالهم «لأنهم الأفضل في نقل رسالة التسامح والسلام إلى أهلهم».

اللافت أن الطريق الذي سلكته الضحية، هو نفسه الذي سلكه «جلادون» بعد إعادة قراءة تجاربهم. زياد صعب، محيي الدين شهاب وأسعد شفتري نماذج منهم. هم أيضاً رووا تجاربهم أمام الحضور، فكان ندم وطلب المغفرة من الذات قبل الآخر، ونصيحة بأن الحرب لا تودي بضحاياها فقط، بل أيضاً بجلاديها.

روى زياد صعب كيف آمن بأيديولوجيا بسبب الفقر، وحديث الأجداد عن مقاومة الانتداب وكل محتل، وشيخ اسمه أبو جميل كان يتردد على بيتهم ليتحدث مع والده بأمور الدين. «كرهت ما كان يفعله وصرت أبحث عما هو نقيض أبو جميل، فوجدت الحزب الشيوعي». قاتل صعب إلى جانب الفلسطينيين وكان مقتنعاً بأن التغيير الثوري هو الحلّ. اليوم هو ناشط بحركة «السلام الدائم» على أساس أن «من قام بالقتال هم أولى بالبدء بالمصالحة».

قدّم صعب أسعد شفتري على أساس أنه زميله وعدوّه السابق. فاختصر الزميل والعدوّ السابق تجربة باتت معروفة، كونه الوحيد الذي قدّم رسالة اعتذار إلى الشعب اللبناني عن كل ما اقترفته يداه.

قال شفتري: «لا تبدأ الحرب حين تطلق الرصاصة الأولى، بل تبدأ قبل ذلك بكثير، وأنا بدأت معي بجلسات النكات التي كنا نتبادلها حول الآخر المسلم. ننتقد عاداته وممارساته الدينية حتى ترسخ كـ«الآخر الأدنى». وهي العبارة التي كان يستخدمها أحد الزعماء الذين كنت أولي الولاء لهم».

الآن، يعمل شفتري على جعل جميع الأطراف يتبادلون الحقائق للانطلاق نحو مستقبل من دون حقد. مثله، يعمل محيي الدين شهاب الذي تشبع من جذوره السنية، فقاتل من كان يعتبرهم «الصليبيين الجدد» مكملاً مسيرة «صلاح الدين الأيوبي». وقد حرض شبابا شكلوا فريق كرة قدم، فحولهم وهم ثلاثة وعشرون إلى مقاتلين. «من هؤلاء، مات واحد وعشرون، وبقي اثنان: أنا وزميل آخر مشلول». أراد شهاب القول ان الجلاد كما الضحية، يدفع أيضاً ثمن الحرب.

لم يخرج المؤتمر بتوصيات، بل بتوافق على أهمية التسامح الذي تجسد في لقاء بيري وماغي. فقبلة الجلاد والضحية أوصى بها علماء النفس الحاضرون ايلين بوريس، فاميك فولكان وأوجين روغان. إذ لا يمكن الانتقال إلى حالة السلم وبالتالي السلام من دون فعل المسامحة، الذي يشفي جراح الضحية قبل أن يشفي جراح الجلاد.

ربما تكون خطوة صعبة على اللبنانيين وحتى على العلماء في السياسة، فقد سألت الدكتورة ليلى فوّاز: هل أسامح أم أعاقب؟ وكيف أسامح ولم يسألني الآخر المغفرة؟ في حين لفت الدكتور أنطوان مسرّة إلى عامل الخوف الذي يتوارثه اللبنانيون من الآباء إلى الأبناء. «فكل شيء ينهار بالخوف. وهذا ما يحصل في لبنان».

مادونا سمعان